من مذكرات جورج روجر عن رحلته إلى جبال النوبة عام ١٩٤٩

ترجمة ومقدمة سام برنر

المصور جورج روجر
(١٩٠٨ _ ١٩٩٥)

رؤية جورج روجر لجبال النوبة

وصل الصحفي البريطاني جورج روجر إلى جبال النوبة عام ١٩٤٩ محاولة منه الهروب من أحوال الحرب العالمية الثانية التي كان يعمل مصورا صحفيا أثنائها. فبعد "قضاء وقت طويل أحاول فيه التقاط صور جيدة لجثث الموتى بمعسكرات الاعتقالات الألمانية" كما قال، ذهب روجر إلى أفريقيا ليصور أسلوبا مختلفا للحياة - "حيث يمكنني أن أغتسل من وسخ الحرب وصراخ الجرحى وأنين من يقاربون الموت. كنت أبحث عن مكان نظيف لم تلوثه الأحقاد القاتلة - ووجدته وسط القبائل الأفريقية."

بدأ روجر رحلته حول أفريقيا أوائل عام ١٩٤٨، ترافقه زوجته سيسلي، بحثا عن البراءة الشافية لجروح الغرب النفسية وعن بشرية لم تدنسها الحضارة. "أرى نهاية الاستعمار وأود أن أصور ما تبقى من أفريقيا الأم العجوز التي يسبق فيها حكم الحراب حكومات أقلام الحبر والبيروقراطية" كتب روجر في مذكراته عن تلك الفترة. أراد تسجيل العلاقة المرهفة بين الطبيعة والإنسان مدركا مدى هشاشة تلك العلاقة وكونها تتلاشى أمام أعينه. فطالما ترك الاستعمار قلب أفريقيا دون تدخل كبير في طريقة معيشة أهلها مستغلا القارة كمخزن موارد ضخم، فإن انسحاب الأوربيين منها كان يعني لروجر بأن وقت التغيير والتقدم قد حان وقد جعله ذلك أكثر شغفا بتوثيق كل ما يمكن تصويره من المجتمعات التقليدية في تلك القارة.

ومع أنه يصعب التخيل بأن روجر كان على علم لمدى التغيير الذي سيطرأ على أفريقيا في السنوات الخمسين التالية لرحلته ألا أن صوره لا تزال تشهد على تلك الفترة الواقعة على حدود "التحديث العظيم" الذي بدأ قبيل الحرب العالمية الثانية.

لم يكن روجر سعيدا بالطريقة التي بدأت بها رحلته فقد تزامن وجوده في جنوب أفريقيا مع فوز حزب جنوب أفريقيا القومي العنصري بقيادة الدكتور مالان، فتركها مسرعا إلى محمية كروجر ومنها إلى يوغندا حيث قام بتصوير عرس لقبيلة الكاباكا، ثم عدة مشاريع بريطانية فاشلة للفول في تانزانيا إضافة إلى توثيق بعض من أسوأ مشاهد استغلال الأوربيين للأفارقة والمتمثل في منجم الماس في شينيانقا. ألا أن أقرب الفترات إلى قلبه كانت تلك التي قضاها مع القبائل الأفريقية الأصلية: الخوصا والأمانقواي في جنوب أفريقيا، الواكانجو والبيشيمبوري في يوغندا، وأخيرا الدينكا والنوبة في السودان.

كان روجر يعتبر نفسه كاتبا أكثر منه مصورا، وما كانت الكاميرا سوى طريقة لدعم ملاحظاته الدقيقة التي كان يرسلها مع أفلامه الخام إلى مجلات مثل ((ناشونال جغرافيك)) و((لايف)) و((ويكلي إيلوسترايتيد)) كسبا للمال الضروري لتمويل رحلاته حول العالم. ولم يكن لروجر أن يرى أعماله إلا بعد سنوات من نشرها ولكن ذاكرته ودقة توثيقه لكل ما مرت به من أحداث – وقد كان يطبع مذكراته يوميا على آلة كاتبة محمولة – ساعدته على الاحتفاظ بخيوط المقالات التي كان يرسلها على حلقات إلى تلك المجلات. لذلك كان التقاط الصور بالنسبة له دائما جزء من القصة وليس هدفا في حد ذاته، فلم يلق بالا كبيرا لسمعته كمصور صحفي بل إعتبر صوره شرحا إضافيا لأساليب الحياة المعقدة التي كان يحاول سردها على قرائه من الغربيين، باذلا كل جهوده في صقل النص الذي كان يؤلفه.

قضى روجر وزوجته فترة أسبوعين في جبال النوبة امتدت من ٢١ فبراير وحتى ٣ مارس ١٩٤٩. وكاد العالم ألا يرى صور روجر من جبال النوبة – "أخاف ألا يتم أي شيء في هذا القطر إذا ما طبقت السودنة تماما علي إدارته" كتب روجر محبطا عشية مغادرته إلى كردفان، مشيرا إلى صعوباته البيروقراطية التي واجهت محاولات دخوله إلى تلك المنطقة. وقد كانت زوجته سيسيلي آنذاك حاملا في أشهرها الأخيرة مما تسبب في قلق لروجر الذي أراد مغادرة السودان إلى قبرص لتضع سيسيلي مولدها. وقد إنتهت عودته بعد الرحلة إلي أوربا بكارثة شخصية، إذ أنجبت سيسلي طفلها ميتا ولاقت منيتها بعد الولادة بأسبوعين. وصدر كتاب روجر مهديا لها: "إلى سيسيلي التي كانت هذه رحلتها الأخيرة" باللغة الفرنسية عام ١٩٥٥ ولم تنشر ترجمته بالإنجليزية إلا عام ١٩٩٩.

يتضح لدى قراءتنا لوصف روجر للنوبة بأنهم تركوا عليه انطباعا حسنا لمودتهم وكرمهم الذين عاملوه بهما وذلك بالرغم من مدى غرابة ثقافتهم وتقاليدهم عليه.

وتعتبر صور روجر لجبال النوبة أعمالا فنيا رائعة توحي بمدى احترامه لهذا الشعب، بالرغم من أنه التقط معظمها بأدوات تكاد تكون بدائية وعلى أفلام بالأبيض والأسود. ومع أن روجر كثيرا ما اعترف بعدم تلقيه أي تدريب على أيدي محترفي التصوير في زمانه، ألا أن كل اللقطات من أفلامه الثلاثين التي صورها في جبال النوبة صالحة للنشر، مما يشهد له بإبداعه في التصوير ومدى خبرته التي اكتسبها أثناء الحرب.

لم يتمكن روجر من العودة إلى جبال النوبة مرة أخرى بالرغم من رغبته الشديدة في ذلك وسفرياته في أرجاء أفريقيا الأخرى – ووقفت الحروب الأهلية والبيروقراطية وصعوبة الانتقال عائقا بينه وبين القبائل التي أحبها. وأحزنه جدا أن تجذب صوره لهم التي نشرتها العديد من المجلات العالمية اهتمام لا العالم الغربي فحسب بل والحكومة السودانية التي سارعت إلى فرض حضارتها المسلمة على تقاليد النوبة بإلزامهم الملابس ومنع مسابقات المصارعة بينهم.

وعندما نشرت مجلة ((ناشونال جغرافيك)) صورة المصارع الفائز محمولا على أكتاف منافسه في قصتها عن جبال النوبة في فبراير ١٩٥١، أثارت اللقطة فضول المصورة الألمانية ليني رايفنشتال المشهورة لكونها المصورة الشخصية للطاغية الألماني هتلر. فعرضت على روجر مبلغ ألف دولار ليعرفها على المصارع ويبوح لها بمكان القبيلة. ألا أن روجر كتب إليها يقول "إذا أخذنا بعين الاعتبار خلفية كل منا، فلا أعتقد بأن لدي ما أقوله لك." ولكنها ثابرت في سعيها خلف النوبة حتى تمكنت من زيارة المنطقة للتصوير مرتين، في ١٩٦٢ و١٩٧٥. ومن يشاهد صورها المنشورة في كتابيها "شعب كاو" و"آخر النوبة" أن يري مدى تأثير عمل روجر عليها. وقد ترجمت كتبها إلى مختلف لغات العالم ولاقت نجاحا كبيرا حتى في السودان حتى قامت الحكومة الحالية بحظر تداوله هناك. ولكن معالجة رايفنشتال للنوبة لا تتسم بالاحترام الذي أبداه روجر – فقد رأت فيهم أمرا مثيرا للعجب والإثارة وسعت إلى رشوتهم بالمال ليخلعوا ملابسهم ويتصارعوا أمامها. أما روجر، بالمقابل، فقد كان دائم الاهتمام بشمولية الصفات الإنسانية لكل الشعوب التقليدية ولم يتدخل أبدا بين العدسة وموضوع صورتها بل بقى شاهدا موضوعيا متعاطفا لما يصوره.

وجه أفريقيا دائم التغيير، فقد شرع التقدم والتعليم يمدان خيوطهما إلى أظلم أركانها، وبات من الممكن الشعور بهذا التحول الضخم من القاهرة شمالا إلى الراند في جنوب أفريقيا ومن لاغوس غربا إلى ميناء مومباسا شرقا. لن يمضي الكثير من الوقت حتى تصير أفريقيا التي عرفها الرحالة ليفينجستون وبرازا سوى سردا عن غياهب الماضي.

مضت أيام قبائل المحاربين العظيمة من الزولو والمساي، ويكاد ساحر القبيلة أن يتوارى هو الآخر بعدما فقد سلطته التي سعى إلى التمسك بها بشدة، وتم استبدال حكومات الشعوذة بحكومات جديدة أدواتها في إدارة الأمور الحبر والورق وحرابها الجديدة أقلام الحبر الجاف رخيصة الصنع.

ومع أن التطورات في مجال الطيران والنقل بعد الحرب العالمية الثانية وشبكات الطرق الحديثة قامت كلها على فتح المجال أمام المستكشفين، ألا أن أجزاء من أفريقيا لا يزال يصعب الوصول إليها – وهي المناطق التي شيدت الطبيعة حولها جدران طبيعية تحميها من تسلل الغرب إليها، حيث بالإمكان مشاهدة أفريقيا الحقة التي لم تتأثر بثقافة البيض وحافظت على تقاليدها العتيقة وعادات قبائلها وتراثهم.

تعتبر كردفان واحدة من هذه المناطق النائية البدائية التي يصعب الوصول إليها وتمتد على مساحة ٣٠ ألف ميل مربع في قلب السودان غرب النيل الأبيض في بقعة خرافية غريبة الملامح تعدها الزمن، تعرف وسط السودانيين بجبال النوبة. تتسم المنطقة بالجبال الصخرية العارية الضخمة التي قد يصل ارتفاعها إلى ٤ ألف قدم تطل بأشكالها العجيبة التي نحتتها تعرية الرياح والرمال العاصفة على الأودية المحيطة بها حيث تضفي الأشجار الضامرة ومجاري المياه الموسمية العميقة الجافة المزيد من الإحساس بعدم واقعية هذا المكان.

وقد أقام سكان المنطقة قراهم فوق هذه الجبال المشوهة ووسطها، إذ يسكنها اليوم حوالي ٣٠٠ ألف من سكان قبائل النوبة الأفريقية الأصلية، يحيطهم القادمون الجدد من العرب والحاميين والقبائل النيلية.

من المحتمل أن يكون شعب النوبة هو أول من سكن هذه المنطقة ولو أننا نجهل أصولهم العرقية. لم يدخلوا التاريخ المدون إلا مع ظهور محمد أحمد "المختار"، أبن حافر قنوات الري في دنقلا، الذي شاء له القدر أن يصبح المهدي المنتظر. فبالرغم من وثنيتهم وإسلامه، ألا أن النوبة التحقوا برايات المهدي جنودا وساعدوه على تحرير البلاد بسرعة من الطغيان المصري. وقد هزم المهدي عام ١٨٨٣

جيشا من ١٠ آلاف جندي مصري بقيادة الجنرال البريطاني وليام هيكس، ثم قتل الجنرال غردون على أيدي رجاله عند سقوط الخرطوم. ولم تسترجع بريطانيا البلاد إلا عام ١٨٩٨ عند هزيمة المهدية في معركة أمدرمان البطولية على يد اللورد كيتشنر لتعود محكومة من الاستعمارين المصري والبريطاني معا.

كل ما نعرفه عن جبال النوبة قبل تلك الفترة الوجيزة نسبيا هو أنهم كانوا مصدرا غنيا للاتجار بالعبيد في الشرق الأوسط، فحتى الكتابات الرومانية واليونانية القديمة تذكر العبيد النوبة. وأبان فترة المهدية تعرضت المنطقة للعديد من الغارات من العرب الذين كانوا يختطفون النوبة ويبيعونهم لتجار الرقيق القادمين بقوافلهم من الشمال، لينتهي شباب النوبة صبيانا وبنات بمزادات الرقيق في مواني البحر الأحمر وبغداد وحلب. وكانت نتيجة غارات تجار الرقيق العرب أن لجأ النوبة إلى الجبال.

بقي النوبة بالجبال أكثر أمنا من العرب الغائرين أثناء فترة المهدية ولكنهم انفصلوا تماما عن العالم الذي استمرت عجلته في الدوران في الأودية الواقعة عند أقدامهم ومنفصلين عن أقربائهم الذين هربوا إلى سلاسل جبلية أخرى. ومع مرور ثلاثة قرون من الخوف والاختباء والعزلة من باقي عشائرهم، فقد النوبة مركزيتهم وطور سكان كل سلسلة منفصلة من الجبال سماتهم القبلية الخاصة بهم، ولهجات مختلفة وعادات تختلف عن عادات جيرانهم. أما اليوم فهناك ٥٠ قبيلة مختلفة للنوبة لكل منها لغتها وكل منها على وعي بتفردها الإثني.

ومع أن السلام عم الجبال منذ بدايات القرن عندما أبطل كيتشنر تجارة الرقيق بعد هزيمته للمهدية في أمدرمان، ألا أن النوبة باقون في جبالهم مغروسون فيها مثل الصخور المكونة لها، يفضلون وعورتها على المسطحات حيث يرعى البقارة العرب جمالهم. ألا أن عزلتهم تسببت في عدم تقدمهم، فبقوا بدائيون اليوم كما كانوا منذ ٣٠٠ عام مما يجعلهم حلقة وصل نادرة مع أفريقيا التي مضت.

الطريق جف – انتبهوا إلى الأفيال!

لا يسمح لأي زائر بدخول محافظة كردفان إلا بإذن رسمي من الحكومة السودانية في الخرطوم، فالمنطقة "مغلقة" جغرافيا ودبلوماسيا. وهكذا حين وصلت وزوجتي إلى حدود السودان الجنوبية قادمين من الكنغو، تملؤنا الرغبة في مشاهدة أراضي قبائل النوبة المذهلة وتصوير رياضتهم القبلية المتوحشة، كان علينا أولا أن نستسمح الحكومة السودانية الإذن. وقد صدرت التراخيص لنا سريعا من لدى

المسؤولين ولم يبقى أمامنا سوى تخطي صعوبات الطريق للوصول إلى المنطقة الوعرة، الأمر الذي اكتشفنا بأنه أصعب من توقعاتنا.

قضينا وقتا طويلا نستفهم بالإشارة معظم الأحيان عن حالة الطرق المؤدية من الجنوب إلى الغرب مرورا بمنطقة السدود. فالوصول إلى كردفان مستحيل إلا أثناء بضعة أسابيع من كل عام تقع ما بين الفيضان وهطول الأمطار، فالمنطقة تحوطها مستنقعات السدود مانعة الوصول إليها بشكل ممتاز.

كان أمامنا طريقان نختار بينهما – الأول يمر غربا عبر بحر الغزال والثاني يتجه مباشرة نحو الشمال عبر محافظة أعالي النيل، وكل منهما يزيد طوله عن سبعة ألاف ونصف ميل.

علمنا – بالإشارة – من حاكم بحر الغزال أن نهرا بحر العرب واللول لم تزل فائضة وبأن علينا الانتظار خمسة أو ستة أسابيع قبل أن تصبح قابلة للعبور بالسيارات. لذلك قررنا اختيار الطريق الثاني، متبعين جريان نهر النيل إلى مدينة بور ومن هناك إلى مدينة ملكال التي – ولو أنها لا تزال داخل محافظة أعالي النيل – يمكن إعتبارها مدخلا جنوبيا إلى كردفان. وقد أخبرنا رئيس شرطة بور بأن النيل انحصرت مياهه وأنه سيكون في إمكاننا العبور في خلال أسبوعين ولكن علينا أن نستعجل لأن الأمطار باتت وشيكة الهطول وسينغلق الطريق مرة أخرى لبقية العام. وقد نصحنا وهو يودعنا "انتبهوا للأفيال".

وهكذا انطلقنا من مدينة ياي على الحدود مع الكنغو بسيارتي جيب تحملا معدات المعسكر وما يكفينا من طعام وماء وبنزين لقضاء عدة أسابيع في تلك الأدغال التي علينا اجتيازها إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وصلنا إلى جوبا بعد سفر لحوالي ١٠٠ ميل بالسيارات وهي أقرب مكان يمكن قطع النيل فيه من الطرف الغربي إلى الشرقي. ثم تابعنا النهر مرورا بأدغال كثيفة بها أشجار رائعة الجمال وتسكنها قبيلة الدينكا. كانت الطرق وحلة من جراء الفيضان الذي إنحصر لتوه ولم يكن الطمي قد جف بعد فرأينا أثار أقدام الأفيال في الوحل يبلغ عمقها أحيانا قدمين ويصعب العبور فوقها بالسيارة، فقد كانت هذه الحيوانات الضخمة تعبر الطريق ليلا نهارا لتستقي من النهر. وتذكرنا نصيحة رئيس الشرطة.

وقبيل غروب الشمس قابلنا الأفيال للمرة الأولي. لم تكن تعبر طريقنا بل تسير تجاهنا مجاورة له، يقودها ذكر ضخم الجثة رمادي اللون. وكنا حينها فوق طريق ضيق للغاية وشديد الوعورة يمر في منتصف الأحراش مما منعنا من النزول منه أو الالتفاف والعودة لإفساح الطريق أمام الحيوانات. واستمرت الأفيال في السير تجاهنا مقتربة ببطء وتصميم وكنت أعرف عنها أنها سيئة المزاج سريعة الغضب، وبأنه من الخطر بمكان محاولة التصدي لها. لذلك كان علينا إفساح الطريق بأي ثمن فقمت أنا والسائق السوداني الذي كان يقود السيارة الثانية بالولوج بهما داخل الدغل بقدر استطاعتنا، ثم فتحنا الأبواب استعدادا للركض إذا دعت الحاجة ووقفنا ننتظر بصمت.

ما كان على الأفيال غير التلويح بخراطيمها لتلامسنا وهي تمر بجوارنا ولكنها لم تفقد وقارها وتلقي علينا ولو نظرة واحدة، بل اصطفت صفا واحدا وكا عددها حوالي ٣٠ فيلا منهم الكبير والصغير والكهل والرضيع الذي لم يبلغ ارتفاعه أكثر من ٤ أقدام وسارت وهي تهز رؤوسها وكأنها شبه نائمة تزمجر بطونها متذمرة من الجوع.

بعد رحلة ٥٠٠ ميل أخرى فوق طرق النهر والأدغال وصلنا إلى ملكال التي تبعد حوالي ٨٠ ميل من حدود كردفان. كان الطريق سيئا بشكل لا يوصف، تشققت تربته القطنية السوداء التي أحرقتها الشمس كالبطيخة المتهرئة. ثم تحول الطريق رملا ناعما أملس وقامت على جانبي الطريق أشجار التبلدي الضخمة العجيبة والهجليج ونخيل الدوم وأشواك الطلح. ورأينا أثار العديد من أنواع الحيوانات في الرمال من غزلان وأفيال وزراف وأسود.

قضينا تلك الليلة على أبواب كردفان، وكانت ليلة حارة والقمر ثلثي البدر كفانا ضوءه لإقامة المعسكر دون الحاجة إلى إشعال المصابيح. وقام راعي إبل عربي جاورنا بمدنا ببعض الماء، كان مالحا ووحلا ولكنه لذيذ المذاق فشربناه مع عشاؤنا الذي تناولناه تحت سقف مرصع بالنجوم وخلدنا بعدها إلى النوم على صياح الضباع حولنا وزمجرة أسد بالمقربة منا.

دعوة من مك المساكين القصار

وفي اليوم التالي وصلنا إلى بلاد النوبة متخذين طريقا ملتويا لفقته الطبيعة بشكل عجيب حول أكوام الجلاميد المتناثرة وشقت على جانبيه أشجار السم طريقها من

بين الأحجار بأزهارها الوردية الشمعية بينما امتلأت الوديان بأشجار الحراز الخضراء الظليلة يقتات الإبل من قرون بذورها الصفراء المتدلية.

وأخيرا وقعت أنظارنا على قرى النوبة معلقة عاليا تعانق سفوح الجبال وكأنها نتأت منها بأكواخها المستديرة وسقوف القش التي تغطيها، وكأن يد عملاق قد جمعتها قبضة ورمت بها في الهواء لتلتصق بالصخور وتنحشر وسط شقوقها ثم عمل الريح والمناخ والزمن على دمجها مع الجبال. استوى بعضها فوق قمم جلاميد عارية وبعضها في الوهدان المنحدرة وبعضها الآخر بالكاد يلامس سفوح الجبل، بينما الأطفال يركضون ذهابا إيابا على الممرات الصخرية شديدة الانحدار وكأنهم ماعز جبلي. أما في الأودية أسفل القرى فكانت الشابات يقمن بسقي حقول التبغ الصغيرة من قرب صفراء ضخمة جلبن فيها الماء من الآبار فوق رؤوسهن.

قد يبدو رجال النوبة للوهلة الأولى جبابرة شديدو الضراوة بأجسامهم القوية ورؤوسهم المستديرة الضخمة وجبهاتهم الضيقة المقرونة. ولكنهم في واقع الأمر مسالمون ودودون يفضلون ممارسة الرياضة والترفيه عن شن الغارات ضد جيرانهم، وذلك بالرغم من أن رياضتهم تلك قد تبدو لمن هم أكثر تمدنا قاسية ضارية إلى حد بعيد. وتتخصص كل قبيلة في نوع معين من الرياضة - من رمي الرمح إلى المصارعة والاقتتال بالعصي أو – وهو أخطر أنواع ما يمارسونه منها – الاقتتال بالأساور. هذه الأخيرة، بالإضافة إلى الاقتتال بالعصي تمارس بشكل ضاري يكاد المشاركون فيها أن يلقوا حتفهم أثناء المباريات. ولكن بالرغم من ضراوة ممارساتهم الترفيهية تلك فهم شعب ودود سعيد، لا تضايقهم قلة ممتلكاتهم المادية – فلا يملك النوباوي أكثر من وعاء للطبخ و رمح – أو قلة المال الذي لا حاجة لهم إليه، ولا يشعرون بالحرج من أجسامهم العارية إذ أنهم لم يرتدوا الملابس أصلا قط. وقد يكونوا بدائيون فعلا ألا أنهم أسعد حالا من غيرهم من أقرانهم الأفارقة أنصاف المتعلمين وأنصاف العراة وكاملي الحيرة في أمرهم.

كنا معسكرون بالقرب من قرية تدعى ريكا عندما زارنا مك المساكين القصار، وهو عربي يرتدى جلبابا فضفاضا وعمة بيضاء كما هو حال بقية شعبه. وقد فوجئنا بموافقة النوبة على أن يرأسهم عربي مسلم لما لهم من تاريخ مأساوي مع العرب يتصف بالحروب وتجارة الرقيق، ولكنا اكتشفنا فيما بعد أن هذه عادة في العديد من أرجاء جبال النوبة، حيث يكون رئيس القبيلة عربيا ونائبه من أهل النوبة.

كان مك المساكين القصار مهذبا وقورا وهو يصافحنا ويرحب بنا في أرضه. وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث رأيت بطرف عيني شاة تجر رغم أنفها خلف خيمنا

حيث تم ربطها بوتد. ويبدو أن الشاة كانت مدركة بأنها جزء من هذا الترحيب التقليدي إذ باتت تثغو شاكية وهي تنتظر ذبحها تكريما لحضورنا.

يعتبر بدء الحديث بالسؤال عن الأسباب الفعلية التي جاءت بنا إلى كردفان أمرا لا يدل على الأدب، كما لا يجوز ابدأ الفضول الشديد بشؤون الزوار، لذلك دأب الملك على سؤالنا أولا عما إذا كانت رحلتنا قد انقضت على خير، وإذا كان الطريق سهلا والأيام التي قضيناها على سفر ليست بطويلة. ولم يسألنا البتة من أين أتينا أو إلى أين نحن ذاهبون. وقد أجبناه بردود مبهمة وسألناه بدورنا عما إذا كان الحصاد جيدا والمطر وفيرا. "الحمد لله، كل شيء تمام" أجاب الملك، ألا أنني متأكد بأنه كان سيجيب نفس هذه الإجابة لو أصاب الأرض جفاف ومجاعة طاحنة إذ ليس من الذوق التعبير عن ضيق النفس وعدم الرضا أمام شخص غريب.

جاءنا طباخي بالشاي فقضينا الدقائق العشرة التالية نتذوق هذا المشروب الساخن المسكر تصدر هنا أصوات الاستمتاع دون أن ننطق بكلمة واحدة على الإطلاق. وبعد أن تأملنا الملك ووجدنا مهذبين ولسنا بالأجلاف البيض كما كان يعتقد، وبعد أن تناول شاينا، بدأ الحديث معنا بالسؤال عما إذا أعجبتنا المنطقة وهل عاملنا أهلها معاملة حسنة، فأجبته بأن الرحيب بنا كان على خير وجه كما توقعت وبأنه لم يتسبب أحد في أية مشاكل لنا. أما بالنسبة للجوار، فقد وجدناه مثيرا للاهتمام لدرجة رغبنا فيها قضاء بعض الوقت به بالرغم من أن وقتنا كا ضيقا، والتقاط بعض الصور للقرية وأهاليها. ثم سألت الملك عما إذا كان هناك ما يعتقد أنه جدير بالمشاهدة فقال أن سبرا سيقام في جوار جبال الكرنغو وبأنه يرحب بنا ضيوفا عليه إذا رغبنا في مشاهدته. أما السبر (وهي كلمة عربية) فهو - كما شرح لنا الملك - تجمع احتفالي للنوبة يكاد دائما أن يشتمل على استعراض لقواهم البدنية. ولأن الكرنغو هم الأقوى بنية من بين كل قبائل النوبة فهم أيضا من خيرة المصارعين في المنطقة.

كانت الدعوة فرصة لنا لمشاهدة ما جئنا لرؤيته وقطعنا المسافات الطوال لتصويره – الرياضة القبلية عند النوبة. لذلك قبلنا الدعوة دون نقاش ونحن مدركين بأن الملك ما كان لدعانا إلى السبر ما لم يتأكد قبلا من اهتمامنا الفعلي به وبأنه سيقوم على ترتيب الاحتفال على أفضل وجه لأن ذلك من صفات الكرم والضيافة عند النوبة.

كان الصباح قد انتصف وارتفعت درجة الحرارة التي لا ترحم عندما بدأ السبر تحت ظلال أشجار الحجليج في الوادي الواقع أسفل قرية برام. كان المصارعون جالسون في الظل يتجاذبون الحديث بهدوء عند وصولنا، رجال فارعي القامة فاق

طول كل منهم ٦ أقدام، أكتافهم عريضة ورؤوسهم حليقة لا تزينها إلا نتف صغيرة من الشعر، عراة تماما يغطي أجسامهم رماد الخشب الأبيض ليمنع قبضاتهم من الانزلاق أثناء المصارعة .

وبعد فترة من الزمن بدأت مسيرة غريبة في النزول من القرية الواقعة أعلى الجبل يقودها أحد الأهالي عاريا تماما وهو يدق طبلا ضخما، وخلفه عدد من النساء يحملن على رؤوسهن أوعية مسطحة بها أحزمة من جلد القرود مزينة بريش النعام وأساور يلبسها الرجال المتصارعون فوق أذرعهم. خلف النساء جاء المزيد من المصارعين المغطين بالرماد الأبيض ثم كل من هب ودب من القرية – رجال ونساء وأطفال، يرقصون ويتغنون ويطبلون ويهزون الرماح، كلهم عراة كما ولدوا مع أن بعضهم قد تزين بحلي أصيلة صنعوها بأنفسهم بهذه المناسبة. إحدى الفتيات مثلا ارتدت عقدا من أغطية زجاجات البيرة حول عنقها ووسطها، بينما حمل رجل ضخم الجثة طائرا محنطا من نوع البلشون (مالك الحزين) كاملا وفاردا جناحيه على ظهره. ورجل آخر غطى جسمه بأجراس نحاسية بينما وضع العديد من الرجال ريش النعام فوق رؤوسهم أو رسموا تصميمات مدهشة بالفحم على الرماد الأبيض المغطى لأجسامهم. أما النساء فقد تمسحن بزيت السمسم لتلمع أجسادهن الرشيقة في الشمس. في نهاية المسيرة إصطفت حوالي خمسون فتاة شابة تحملن فوق رؤوسهن القراع الممتلئة بمشروب المريسة وهو البيرة المحلية المصنوعة من نخيل الدوم، وهن يتراقصن على دقات الطبول دون أن تنسكب نقطة واحدة من المشروب على الأرض.

وبمجرد أن تجمع الكل انتظموا دون أن يرأسهم أحد وبدأت جوقة بربرية نوعا في العزف - أصحاب الطبول من جهة وأصحاب الأبواق المصنوعة من قرون مختلف الحيوانات من جهة. وزاد إيقاع الطبول سرعة وعلوا مع تقدم المسيرة التي انفصل المصارعون عنها وبدءوا في التقدم نحونا وهم يستعرضون عضلاتهم ويربضون، ويصدرون أصوات نخير مع كل خطوة يخطونها، في حين تركض الفتيات من حولهم وهن يطلقن الزغاريد.

مصارعون وسيف مقدس وعصي

بدأ التباري بين المصارعين دون أي نظام، فقد تجمع المشاهدون في ما يشبه الحلقة حول المتنافسين الذين ربضوا أزواجا يواجه كل منهم منافسه واستمروا لدقائق عدة يزمجرون كاشفين عن أسنانهم ثم فجأة تكالبوا وسط زئير المشاهدين التشجيعي. في بعض الأحيان كان أكثر من ست مباريات تأخذ مجراها في آن واحد، والمشاهدين

يتزاحمون عليهم للحصول على أفضل مكان للمشاهدة وهم يهزون رماحهم استحسانا ويخلقون ضجيجا حول المكان إلى عراك صاخب لا تعرف أين ينتهي عنده دور المشاهد ويبدأ دور المستعرض. ودأب عازف الطبل على النقر بقوة متزايدة لتحميس المصارعين بينما تجول كجور القرية حاملا سوطه الجلدي ضاربا به غبار الأرض في محاولة لطرد الأرواح الشريرة. وكلما سقط أحد المصارعين أرضا انطلقت من الحناجر زمجرة تعلن فوز الآخر الذي كان يرفع عاليا على أكتاف شاب عملاق الجثة تركض أمامه الفتيات المزغردات ليدور به وسط المعجبين.

كان المشهد في رأينا متوحشا وبدائيا للغاية ولكنه أيضا شديد الإثارة.

وفجأة وصل مصارعون جدد إلى الحلبة و قامت النسوة بذر الرماد الأبيض على أجسامهم من قرع لها أعناق طويلة، ثم دارت الجعة على الجميع إعلانا ببدء المباراة التالية، فانغلقت الحلقة على ذاتها وعاد الرجال إلى الكشف عن أنيابهم واختبار قدراتهم والتصارع مرة أخرى. استمر الوضع على هذه الحالة طوال فترة العصرية الحارة، مع ارتفاع الوتيرة وكميات الجعة المشروبة مع اقتراب المغيب، ألا أن أي من المتنافسين لم يفقد أعصابه أو حاول الغش في المباراة بالرغم من ضراوتها – فبمجرد سقوط أحد الخصوم أرضا وإعلان الجمهور عن الفائز بالزئير تعود الأمور إلى الهدوء بين الخصمين ويتجاذبا الحديث والضحك والاستمتاع بباقي الاحتفالات بنفس قدر متعة الجمهور المشاهد.

تركنا القرية عند المساء عائدين إلى معسكرنا ولكن أين لنا من النوم تلك الليلة، فقد احتل سرب من نمل الشحاميط المتوحش خيامنا – وهو نمل أسود يبلغ طوله حوالي البوصة وتشبه قرصته لسعة النار. لم يكتب لنا أن نرتاح من الإثارة في قرية رايكا وسط الملايين الزاحفة ولم يكن أمامنا سوى الصعود إلى داخل سيارة الجيب ومحاولة النوم داخلها. وحين بزغت شمس الصباح اختفى النمل كما جاء. أنه نوع الزيارات التي على المسافر في أفريقيا أن يعتادها.

يبدو أن تقديرنا لمباريات المصارعة في كرنجو قد أذيع في المناطق المجاورة، لأن مك المساكين الطوال دعانا إلى قريته لمشاهدة مباراة التبارز بالعصي، وذلك حتى لا يقال أن مك القصار أكثر كرما منه. وقد أرسل لنا رسولا صبيا ليقدم الدعوة ويعتذر عن عدم قدرة المك الحضور شخصيا لزيارتنا في معسكرنا.

توجهنا في اليوم التالي إلى الجبال التي يسكنها المساكين الطوال، متخذين طريقا صخريا لا يصلح للسيارات لمسافة ١٠ أميال على الأقل وبعد أن تلاشت أي آثار له واصلنا الرحلة سيرا على الأقدام. أما المك بجلبابه ناصع البياض وعمته فاسمه الشيخ سليم عبد الله، وفقد خرج ليقابلنا عند بداية الوادي ومعه نائبه الشيخ اسماعيل عبد الله، وكلاهما من العرب. وبعد تبادل التحايا الرسمي جلسنا في ظل شجرة تبلدي نرتشف الشاي المخلوط بالعسل والبهارات. وعندما استعدنا قوانا ونفذت مواضيع الدردشة، شرعنا في تسلق الدرب الطويل المؤدى إلى القرية المختبئة في أعلى قمم الجبال. ألا أن المك أصر قبل كل شيء على أن نرى ((توباري))، وهو السيف المقدس لدى المساكين الطوال الذي يحتفظ به فوق أعلى قمة في المنطقة. وعند رؤيتنا إلى ما أشار إليه المك ساورتنا شكوك حول قدرتنا في الوصول إلى تلك القمة البعيدة.

كان الجو شديد الحرارة والطريق يلتوى بانحدار وسط الجلاميد التي كانت تعكس الهواء الساخن في وجوهنا. وكلما مررنا بمنازل بعض النوبة المقيمين وسط الصخور العالية خرجوا ليلقوا علينا التحية. وبالرغم من أنهم نادرا ما شاهدوا أشخاص أوربيون ألا أنهم تقدموا نحونا دون تردد وبابتسامات تصاحب الآيادى الممدودة لمصافحتنا. كانت مصافحتهم غريبة، إذ يمسكون بأطراف أصابع الشخص الآخر ثم يطرطقون أصابعهم الوسطي معا. ورأينا الشابات وقد تحلين بالأزياء الاحتفالية وهي عبارة عن خرز أحمر على جبهاتهن وشعورهن وخيط واحد من الخرز الكوبالتي الأزرق على أردافهن، وقد لون حلمات صدورهن وكسون أجسادهن بزيت السمسم حتى باتت تلتمع في ضوء الشمس الباهر. وقد أصبحت يدي اليمنى شديدة اللزوجة بعد مصافحة ثلاثين منهن مما سهل من عملية طقطقة الأصبع الأوسط أثناء تبادل التحية بشكل جيد.

سعدنا كثيرا عندما أعلن الشيخ سليم أننا سنتوقف للراحة في ظل تبلدية أخرى فقد وصلت درجة الحرارة بنا حدا لا يحتمل. وقد طلب الشيخ لنا الماء من منزل مجاور فجاءتنا به ستة فاتنات سمر يحملن على رؤوسهن قرعا عسلية اللون زينت أطرافها بأشرطة من الودع. ودار القرع من فم إلى فم فاستقى الجميع من الماء المسكر بعسل النحل البري. وجاء مضيفنا بالعناقريب التي وضعت عليها قطع أقمشة مطرزة لننال قسطا من الراحة، فتمددنا لمدة ساعة في الظل العليل نطقطق الأصابع مع كل أطفال القرية الذين جاءوا بخجل ليسلموا علينا. ولاحظنا بأن الأطفال كلهم كانوا لطفاء أصحاء نظاف ولا يتصرفون بالأسلوب المفتعل المنتشر وسط أطفال الأجناس الأكثر تطورا. وبعد أن نلنا قسطنا من الراحة داومنا السير إلى الساحة التي ستقع فيها المبارزة.

استمر الطريق الملتوى والمتعرج في الصعود بنا وبلغ بنا الإرهاق مداه ونحن نحاول السير بنفس سرعة الشيخ سليم الذي كثيرا ما اختفى جلبابه الأبيض خلف الصخور ليظهر بعد لحظات في مكان مرتفع عنا. أما الشيخ إسماعيل الذي كان بدينا بعض الشيء فقد صار في نهاية الصف سعيدا ولا شك بعدم قدرتنا على مسايرة رئيسه الرشيق. بدا لنا عدة مرات بأننا على وشك بلوغ قمة الجبل ولكننا لم نكن في الواقع حتى على مقربة منه. شعرنا بأن أرجلنا تحولت حديدا وتلاحقت أنفاسنا من التعب عندما سمعنا أخيرا صيحة من مكان ما يعلونا، وعندما تمعنا النظر رأينا الملك واقفا فوق صخرة كبيرة، يرفرف جلبابه في الهواء وهو يحمل في كلتا يديه سيفا ضخما رافعا إياه عاليا فوق رأسه. كان هذا هو ((توباري))، السيف المقدس لقبيلة المساكين الطوال.

عندما وصلت إلى مكانه بعد جهد شعرت بالخجل الشديد من تعبي فالرجل كان تنفسه هادئا وكأنه لا زال جالسا تحت التبلدية، وأثارت قدرة هذا المسن على التحمل إعجابي بشدة. فقد وقف شامخا وفي كل كفيه الممدودتان سيف صدئي عتيق تآكل نصله ألا أن هذا التآكل الطويل ما كان ليمسح أصله – فما كان الشيخ يحمله كان سيفا من أيام الحملات الصليبية. وقد سألته عما يعرفه عن تاريخ هذا السلاح فقال أن كل ما لديه من علم هو أن أجداد وأجداد أجداد المساكين الطوال وجدوه في هذه الجبال عندما لجئوا إليها للمرة الأولى هروبا من تجار الرقيق، وجدوه مغروسا في الأرض في هذا المكان الذي وقفنا به فبنوا حوله ضريحا وجعلوا منه رمزا لقبيلتهم.

وضع الشيخ السيف أرضا بكثير من التقدير وعدنا أدراجنا وأنا أفكر في معنى هذا التاريخ؟ هل وصل الصليبيون حتى هذا المكان النائي أم أن أحد العرب الذين حاربوا ضدهم قد جاء بالسيف إلى كردفان؟ ألا أن الإجابة على هذا السؤال ستبقى دائما في طي المجهول!

لم يكن النزول من الجبل صعبا كالصعود وسرعان ما وصلنا إلى القرية التي كان من المخطط أن تعقد فيها مبارزة العصي. سرعان ما أعلن دق الطبول وصول المتنافسين الذين ارتدوا زيا غريبا: قبعات أشبه بالخوذات المصنوعة من الشعب المرجانية الخشنة (وقد امتشفت فيما بعد أنها مصنوعة من الصلصال الأبيض) وأجراس مربوطة حول سيقانهم وعدة قطع طويلة من الأقمشة متعددة الألوان حول وسطهم ثبتت في جهتها الخلفية ذيول الخيل. وقد اختالوا متبخترين أمامنا بنفس الطريقة التي شاهدناها في كرنجو، ألا أن المباراة هنا كانت أكثر نظاما فقد وقف المشاهدون خلفنا في شبه دائرة على مسافة من المتبارزين بينما قام الملك بدور

رئيس المراسم. وقد دعا اثنين من المتنافسين ليدخلوا الحلبة حيث وقفوا دون حراك لدقيقة كاملة يقيس كل منهم الآخر في انتظار إشارة من الشيخ. وحينها قفز كل منهم على أخيه بشراسة النمور مستخدمين العصي في ضرب أي مكان مكشوف من جسم الخصم كالأكتاف والأفخاذ. كانت أسلحتهم المصنوعة من خشب خفيف شديد المتانة تشبه الهراوات أكثر منها العصي ولم يكن لديهم من حماية سوى تروس مستديرة صغيرة من جلد البقر استخدموها بمنتهى المهارة في سد الضربات الموجهة لهم.

كان القتال عنيفا والسرعة لا ترحم، فما كاد رجل يسقط حتى يركض سواه ليأخذ مكانه، بينما امتلأت الحلبة سريعا بالهراوات المهشمة. جارب الرجال بضراوة باذلين كل ما أوتوا من قوة مع كل ضربة. وبعد دقائق قليلة سقط أحدهم مغشيا عليه بعد إصابته بالهراوة على رأسه فتم سحبه دون أي اعتبار ورميه في ظل شجرة السدرة ليستعيد وعيه دون أية مساعدة. فلا أحد طلب الرحمة ولا أحد رحم.

المحاميد

انتهت الاحتفالات وشكرنا الملك على ضيافته وكرمه بحرارة معبرين عن ضرورة عودتنا إلى معسكرنا إلا أنه طلب منا البقاء حتى نقدم لنا بعض العطايا التي جهزوها لنا – دجاجة من الشيخ إسماعيل عبد الله ودرع وهراوتان من الملك شخصيا ثم دستتين من البيض من الفائز بالمركز الأول في المباراة. وعند الانتهاء من مراسيم قبول الهدايا طقطقنا أصابعنا مع الجميع وداعا وسمح لنا بمغادرة القرية ولكن بصحبة ستة من المحاربين العتاة اختارهم الملك لمرافقتنا حتى سيارة الجيب، فنزلنا جميعنا إلى الوادي تتبعنا فتاة تحمل على رأسها قرعة كبيرة مليئة بالماء المسكر لنستقي منها كلما عطشنا. ولدى وصولنا إلى السيارة طقطقنا أصابعنا مرة أخرى مع كل الحاضرين وتوجهنا إلى معسكرنا.

وجدنا المعسكر لدى وصولنا أشبه بالسلخانة وكم كانت دهشتنا لرؤية الطباخ والسائق منهمكين في تقطيع أكوام من اللحم. وقد أخبرونا بحماس أن أحد التجار العرب المقيمين في المنطقة أهدانا نعجة أخرى إضافة إلى تلك التي جاء بها مك المساكين القصار، أما النعجة الثالثة فقد تركها شيخ في طريقه إلى دياره التي تبعد ١٢٥ ميلا عن رايكا معتذرا عن عدم قدرته البقاء لمسامرتنا بسبب طول السفر الذي أمامه. وفرح الشباب بوفرة الطعام هذه فذبحوا النعاج الثلاث تخوفا من أن نقوم بإطلاق أي منها عند عودتنا. ولكن هذا الكم الضخم من اللحم في درجة الحرارة العالية كان مشكلة في حد ذاتها – فمن عدم الذوق إعادة الهدية ومن

الفظاظة تركها تتعفن، ولذلك أمرت الصبيان باختيار أفضل القطع لنا ولهم بما يكفينا لليوم ثم أخذت الباقي إلى مأمور رايكا شارحا له الوضع وطلبت منه أن يوزعها على فقراء القرية. وهكذا حافظ الجميع على كرامتهم.

وفي تلك الليلة زارنا مك المساكين القصار مرة أخرى وتناول معنا الشاي المحوج بالهيل (الحب هان) وجلسنا نتجاذب الحديث عن المنطقة وسكانها وسألته كيف استطاع العرب والنوبة التعايش معا بسلام بعد كل هذه العقود الطويلة من العداوة والحرب. فأجاب المك "أنك تتحدث عن زمن ولى يا أخي، زمن كان فيه العرب هم المضطهدون الناهبون تجار الرقيق. إنه عهد انتهى مع قدوم المهدية. أنا أعلم بأننا أخطأنا كثيرا في حق النوبة ولكنهم شعب يغفر بسرعة ولا يحمل الضغينة لأحد، ولا يعرف كيف يكره" مضيفا أن النوبة بشكل عام محبين للسلام وليسوا مولعين بالحرب. أما عن قبائل البقارة التي تعيش في هذه الأرجاء، فقال أنهم عرب يجوبون الجبال مع ماشيتهم حسب المواسم، فيغادرونها إلى مراعي بحر الغزال في الصيف عندما تجف الآبار هنا ويعودون في الخريف إلى الجبال. ولكن النوبة لا يملكون ماشية بل هم مزارعون يعيشون مما يزرعونه وبالتالي فنادرا ما يترك أي منهم منطقة الجبال.

راودتنا ونحن نستمع إلى المك الرغبة في مشاهدة بعض من أوجه حياة هؤلاء العرب الرحل الذين حكا لنا عنهم والذين يتقاسمون هذه المنطقة مع قبائل النوبة فسألته عما إذا كانت هناك أية فرصة لزيارتهم، وأجابني بقوله "بإذن الله الأحد، إذا سافرتم شرقا من هنا." ورفع كوبه الصغير راشفا منه رشفة بصوت عال وهو مستغرق في التفكير، ثم أخذ نفسا عميقا مما تبقى من سيجارته ونفخ الدخان الأزرق في الليل المحيط بنا مسترداً "لقد شاهدتم المصارعة لدى الكرنغو ومباريات الهراوات عند المساكين الطوال ولكنكم لم تشاهدوا بعد أم المباريات وأكثرها إثارة... الاقتتال بالأساور." سألته أين تقام هذه المباريات وأنا أحاول جاهدا عدم ابدأ فضولي الشديد لعل يعتبرني عديم الأدب، فقال "إذا توجهتم شرقا فسوف تقابلون المحاميد وهم من البقّارة. استمروا في ذات الاتجاه وستصلون إلى مجموعتين من الجبال تعرف باسم كاو نيارو والفنجور. هذه هي المناطق التي يتبارى أهلها بالأساور." ثم تمعن في بعينيه الثاقبتان وقال "أن الشيخ الذي مر عليكم صباح اليوم وترك لكم النعجة هو شيخ كاو نيارو، عبد الرحيم ود الرضي، وهو ابن الشيخ الرضي كمبال. وقد أخبرني أنه ليرحب بكم لزيارته إن نويت الحضور إلى أراضيه." دعوة في منتهى الوضوح ولكنها في السودان تحتاج إلى عدد لا يحصى من أكواب الشاي وساعات من الحديث لإيصالها.

في صباح اليوم التالي توجهنا بسيارتينا في اتجاه الشمس الشارقة نحو جبال كاو نيارو والفنجور المنفردة عن بقية الجبال لمشاهدة مباريات الأساور وسط أكثر قبائل النوبة بدائية. وهذا الطريق أيضا م يكن سوى درب صعب المراس مليء بالحفر الضخمة والخنادق التي حفرتها مياه السيول في فصل الخريف والتي وإن كانت جافة تماما الآن ألا أن ذلك لم يجعلها أسهل عبورا، ثم رمال ناعمة وحلنا فيها حتى أبواب السيارة مرارا واضطررنا إلى جر العربة منها بعد رفعها بالرافعة، وصخور أشكالا وألوان – المسطح منها والبارز والأملس والخشن – كل ما للقلب أن يتمناه من عوائق عدا الأنهار، فالمنطقة في هذه الفترة من العام جافة محروقة بأشعة الشمس تعصف بكثبانها الرياح الساخنة وتغمغم فيها رمال الكثبان.

وأخيرا شاهدنا خيم المحاميد المنصوبة حول بئر فيها بعض الماء، فقررنا أن نعسكر معهم ونقضي ليلتنا في جوارهم. وعند اقترابنا منهم خرج الرجال للقائنا بينما اختفى الأطفال والنساء عن الأنظار. كان رجالهم متحفظين وقورين - على غير شاكلة النوبة الذين تشعرك تصرفاتهم التلقائية وبساطتهم مباشرة بأنك واحد منهم – ألا أن ترحابهم بنا كان صادقا. ولمعرفتهم بمدى عطشنا بعد هذه الرحلة الشاقة قاموا بسرعة بإحضار أحدى أبقارهم وحلبها أمامنا في قرعة عميقة ثم قدموا الحليب إلى أولا فتناولته بعد شكرهم بوضع كف يدي اليمنى على صدري ورشفت عدة رشفات كما فعلت زوجتي بعدى وأعدنا القرعة إلى الشيخ حتى لا نبدو جشعين متلهفين. فتناولها وتذوق الحليب ومررها إلى من كان بجواره الذي رشف منها وهكذا حتى دارت القرعة على الجميع عدة مرات علما بأن الرجال لم يشربوا منها إلا القليل ليبقى ما يكفى لنا. وبعد أن فرغت القرعة ورميت جانبا وجهت لنا الدعوة لقضاء الليلة في كوخ من قصب جاف، قبلناها شاكرين إذ بلغ الإرهاق منا حدا يصعب معه نصب خيمتنا.
تجلى لنا الفرق بين طريقة حياة المحاميد وأبناء النوبة واضحا منذ اللحظات الأولى. فالنوبة الذين نادرا ما يغادرون جبالهم يشيدون أكواخا دائمة من الطين المجفف وأحيانا من الصخور، وإن اختلف مظهر هذه الأكواخ من قبيلة إلى أخرى. فأكواخ المساكين الطوال مثلا أكثرها روعة، إذ تسكن كل أسرة في خمسة أكواخ مستديرة شيدت في دائرة حول "حوش" داخلي مستدير هو الآخر ومغطاة بالجريد. ولكل كوخ فيهم وظيفة محددة، فهذا مطبخ وذاك للنوم والثالث لحفظ حبوب والرابع لتخمير "المريسة" والخامس مخزن. ويتم الدخول إلى "الحوش" من خلال فتحة مستديرة ضيقة في الجدار الداخلي لكل كوخ منهم تكاد لا تسع لإنسان بالغ. أما المحاميد فرعاة ماشية رحل وبالتالي فمساكنهم أقل تعقيدا. وهي مبنية من قصب يمكنهم جمعه من أي مكان أثناء فترة الجفاف وتجفيفه في الشمس، ثم تغطية السقف بحصائر من القش للحماية من أشعة الشمس اللاسعة.

كما أن النظام الغذائي لكلا القبيلتين يختلف أيضا فالمحاميد يقتاتون من منتجات أبقارهم من حليب طازج ورائب وجبن وسمن، بينما يأكل النوبة من نتاج الأرض التي يزرعونها بالذرة والخضروات ولا يأكلون لحم الغنم أو الخراف إلا في المناسبات الخاصة.

ألا أن الاختلاف الأكبر بين الشعبين هو الدين، إذ أن المحاميد عرب مسلمين والنوبة في معظمهم وثنيون. وعلى كل فقد لا يكون النوبة بحاجة إلى أي دين لأنهم بطبيعة حالهم طيبون ودودون أمناء يعيشون حياتهم بحرية بعيدا عن التعقيدات والقيود. فعلى سبيل المثال ليس هناك لدى النوبة ما يربط شخصان بالزواج شرعا عدا كلمة الموافقة المتبادلة بين الطرفين. فإذا أحب رجل امرأة وبادلته المشاعر يبني لها كوخا ويعيشان معا، وتعتبرهما باقي القبيلة زوجين. فإذا حبلت منه سريعا فهذا أمر جيد لأن الأطفال يساعدون الكبار في الزراعة وجلب الماء وأعمال المنزل. أما إذا نضب الحب، انفصل الزوجان عن بعض ويطوي الأمر النسيان، ألا أن ذلك نادرا ما يحدث لأن من سمات النوبة الإخلاص والوفاء.

احتفل بنا المحاميد تلك الليلة بإقامة حفل راقص، فوضعوا مقعدين لنا أمام الكوخ في ضوء القمر بينما تجمع حولنا حوالي ٣٠٠ شخص. كان الجو مرحا دون الحاجة إلى تناول المسكرات أو رعد الطبول البربرية بل أن احتفالات المحاميد أكثر اتزانا وتعقلا من النوبة. تجمع العازفين بالناي والأصناج والدفوف التي شرعوا في دقها بأطراف أصابعهم ووقفوا في مواجهة الجمهور المتفرج ثم بدءوا في عزف نغمات سريعة الإيقاع. وظهرت الراقصات وكلهن من الفتيات غير المتزوجات، ولم يكن ما قمن به رقصا بمعنى الكلمة بل ترنحا ودورانا على إيقاع الموسيقى وقد الصقن أذرعتهن بأجسادهن بتشنج، ورمين برؤوسهن مغلقة العينين إلى الخلف واهتزت صدورهن. ثم اقتربت كل منهن إلى على حدة وسط الزغاريد العالية الرنانة وانحنت فوقي حتى قارب وجهها وجهي رامية بضفائرها الطويلة السوداء يسرة ويمنة تمسحه بها في ما يسميه هؤلاء العرب "شبالا". وعند انتهاء العرض تزاحم الجميع للمشاركة في الرقص والغناء فتمنينا لهم ليلة سعيدة وخلدنا إلى النوم في الكوخ المحضر لنا.

استيقظت عند الفجر ينتابني شعور بأن أمر سيء على وشك الحدوث وإذا بي أشاهد رجلا راكعا بجانب فراش زوجتي مديرا ظهره إلي. حاولت بهدوء أن أتلمس طريقي إلى الحربة التي كان طباخي يضعها بجانبي كل ليلة تحسبا للظروف وأنا أفكر بأنني لو قبضت عليها دون أن يشعر بي الرجل ستكون أمامي فرصة جيدة

للدفاع عنا. ألا أنني لم أتمكن من ذلك لكوني متلحفا بالغطاء، فجلست بهدوء وإذا بي أسمعه يتمتم بالعربية "أصحي، الصباح أصبح." ومددت رقبتي لأرى ما يفعل فرأيته يحمل قرعة مليئة بالحليب الطازج تغطيه الرغوة وشعرت بمنتهى الخجل لعدم ثقتي في المحاميد واعتباري ظهره هدفا جيدا لحربتي. تمددت على الفراش فشعر بحركتي واستدار نحوي بالقرعة قائلا "الحمد لله الصباح طلع علينا." تناولتها منه وشربت وشربت منها زوجتي بعد أن أيقظتها أصواتنا.

أن للمحاميد وأبناء النوبة ثلاثة خصائص مشتركة هي الكرم والضيافة والطيبة. وقد كان شكرنا للمحاميد على استضافتنا شكرا من القلب. لقد حان وقت الوداع والاستمرار في رحلتنا نحو جبال قبيلة الكاو.

وصف لقتال دامي

قضينا بقية النهار نشق طريقنا بشق الأنفس فوق طرق بائسة، متجهين نحو جبال الكاو- نيارو التي وصلناها ليلا والبدر مكتمل يضئ المكان وكأن الوقت نهار، وأشباح أشجار التبلدي تهز أصابعها المعقودة في وجه السماء. كان الجو حارا ورائحة أزهار الفرنجيباني الحلوة تعبق بالمكان عندما قابلنا الشيخ عبد الرحمن ود الرضي على مشارف قرية الكاو المتضامة الواقعة أسفل الجبل على غير عادة قرى أبناء النوبة. أخذنا الشيخ مباشرة إلى مكان فسيح تحت شجرة تين ضخمة حيث أقمنا معسكرنا.

كانت هدية الشيخ لنا عنزة صغيرة وسرعان ما تابعه النوبة بالهدايا – رجال عراة طوال القامة مفتولو العضلات يحملون دجاجة وبيضا وبعض العسل وقربة مليئة بحليب الماعز. وانشغلوا بتنظيف المكان من أفرع التينة الساقطة وأوراقها. كانوا في غالبيتهم بنفس ارتفاع قامة الكرنجو ووسامتهم ألا أنهم كانوا أفتح لونا منهم وأخف وزنا وأكثر رشاقة مما أبرز من قوة عضلاتهم الصلبة. حمل كل الرجال الحراب والأنصال المصقولة وزينوا أعناقهم وأذرعهم الضخمة بأحجبة صغيرة من الجلد.

تناولنا الشاي مع الشيخ ود الرضي الذي أبلغنا أن مباراة الاقتتال بالأساور على وشك البدء وأن الجميع كانوا في انتظارنا وما دمنا قد وصلنا بالسلامة فقد أرسل الصبية ركضا وسط الليل إلى جبل الفنجور المجاور لإخبارهم بذلك حتى يستعد محاربيهم للحضور إلى كاو للمباراة المقامة بينهم وبين رجال كاو – نيارو صباح اليوم التالي.

ولأننا كنا شديدو الإرهاق بعض الرحلة الشاقة التي قمنا بها فقد قرننا الخلود إلى النوم مبكرا، فتوجهنا إلى خيمتنا لنفاجأ بعملاقين واقفين في ظلها على طرفي المدخل. ولم يحركا ساكنا عند مرورنا وسطهما بل بقيا واقفان مستندان على حرابهما. وبداخل الخيمة كان هناك اثنان آخران قابعان أمام الباب وظهورهم مدارة لنا، خصصوا لحراستنا، تسد أجسامهم الضخمة الباب تماما وينعكس ضوء القمر من سنان حرابهم وميضا محذرا.

كان استيقاظنا في الصباح التالي على صوت خافت لدقات الطبول أمام خيمتنا ووجدنا ثلاثة من هؤلاء العمالقة وقد لونوا أبدانهم بالطين الأحمر الممزوج بزيت السمسم في نقوش خيالية، راكعين أمام الخيمة وقد وضعوا الطبول بين سيقانهم يدقون عليها بأصابعهم دقات خفيفة ناعمة. تناولنا إفطارنا على صوت طبولهم وعندما وشكنا على الانتهاء جاءت ست فتيات عاريات تماما لون أجسادهن بالطين الأحمر والأصفر وتدفق الدهن الذي مسحن به شعرهن من ضفائرهن الطويلة، يتمايلن في رقصة تتسم بتناسق ورشاقة لم أرى لها مثيلا في أفريقيا بل أن حركة أيديهن كانت أشبه بالرقص الشرقي منه بأفريقيا. كانت كل منهن تحمل كرباجا من الجلد في يدها تشده أحيانا بين ذراعيها الممدودتان وهي تقف أمامنا منفرجة الساقين. ومع ازدياد حدة الدقات وسرعتها انضم إلينا محاربو الكاو اثنان وثلاثة وصاروا يقفزون في الهواء ويطلقون صرخات مخيفة متحدية في اتجاه الطبول.

وأخيرا وصل الشيخ وأخبرنا بأنه قام باستدعاء المحاربين من نيارو وفنجور ليلا وبأنهم على استعداد لمواجهة محاربي الكاو، فتبعناه إلى ساحة خارج القرية تحيطها صخور عالية وأشجار التبلدي، حيث جلست مجموعات المحاربين من كل قرية على حدا، وسرعان علمنا أن الأمر لم يكن مجرد عرض لصالحنا بل أن كرامة القرية كانت في الميزان.

تفحصت الأساور التي يستعملونها في القتال والحق يقال بأنني نادرا ما رأيت سلاحا فتاكا كهذه. فهي ثقيلة يزن كل منها رطلان على الأقل ومصنوعة من النحاس، لها شفر مسنن ذو حدين ارتفاعه حوالي بوصتان قادر على شق جمجمة إنسان كما تشق البيضة المسلوقة. وبالرغم من الخطر الواضح من الإصابة القاتلة فإن أي من المحاربين لم يملك درعا أو ارتدى أي شيء قد يحمي جسده العاري. في واقع الأمر لم يكن أي منهم مرتديا أي شيء على الإطلاق سوى ذلك السوار القاتل وجرس نحاسي صغير مربوط بالحبل حول وسطه.

وبعد أن جلسنا بجوار الشيخ عبد الرحمن في ظل تبلدية كبيرة دخل المحاربون الساحة أزواجا يركضون بخطي متمايلة تجعل الأجراس المربوطة في أوساطهم ترن مع خطاهم. ثم بدأ القتال: إختار شيخ عبد الرحمن رجلا من الكاو وتحداه أحد رجال الفنجور وانضم إليهما في الساحة رجلان آخران يحملان عصي طويلة لفض الاشتباكات ومنع وقوع جريمة القتل في حالة سقط أحد المحاربين أرضا.

كان الجو متوترا ومفعما بالإثارة وسريعا ما تجمع حولنا جمهور من الرجال كبار السن يهزون حرابهم وأنصالهم المعقوفة عاليا ويهتفون بينما لم تتوقف النساء عن الزغاريد ولو للحظة. أما المحاربون ذوي الأجسام الملونة فقد اختالوا في مجموعات من ثلاث وأربع رجال وهم يهزون حرابهم فوق رؤوس المشاهدين، ثم وضع كل منهم سبابته بأكملها داخل فمه وأطلقوا صرخة الحرب التي تجمد الدم في العروق – فوالله لم أسمع شيئا مخيفا كهذا أبدا. وحدث صخب وهرج حولنا بينما استمرت أنا وزوجتي في رشف القهوة وانتظار ما ستأتي به الأحداث.

وأخيرا شق الشيخ عبد الرحمن طريقه وسط الزحام، وجلبابه الأبيض الناصع يتشرب زيتا مع كل ملامسة لجسد من الأجساد العارية ووقف في منتصف الساحة رافعا يده. وسكت الجميع ليرتفع صوته قائلا بأن المباراة بين الكاو – تيارو والفنجور آن لها أن تبدأ. وارتفع هتاف داوي من مئات الحناجر ثم دار الجمهور على أعقابهم وركضوا في اتجاه الساحة التي ستقع فيها المباراة بينما تابعناهم نحن مع الشيخ عبد الرحمن بخطي أكثر هدوء.

في بادئ الأمر تبارز المحاربان بعصي طويلة وهم يرقصون حول بعضهم البعض برشاقة، يخادعون ويتفادون ويندفعون بالعصي نحو رؤوس منافسيهم بضربات متوحشة. وفجأة وكأن إشارة ما أعطيت لهم رمى كل المحاربان عصيهم جانبا وقفز كل منهما تجاه الآخر رافعا يده المسلحة بالسوار في وجه خصمه. كان القتال متوحشا ووحشيا، تهبط الأساور فيه كهراوات فوق الرؤوس التي لا يحميها شيء حتى بات بإمكاننا سماع صوت السحق المكتوم للنحاس وهو يغرس في العظم. كان الدم ينهمر من رؤوسهم ورقابهم حيث سببت الأساور جروحا عميقة ولكنهما استمرا في القتال مزمجرين وقد تطاير الشرر من عيونهما وتطايرت قبضاهما في الهواء بجنون. وبعد ضربة متوحشة للغاية انفك أحد المحاربين من قبضت منافسه وفي أسفل جمجمته جرح غائر طوله ٤ بوصات والدم ينهمر في كتلة لزجة فوق ظهره وصلبه وحتى كاحليه ولكنه مع ذلك استمر في القتال ولم يهتم أحد بجرحه أكثر مما يهتم الملاكم بلكمة أسودت عينه.

وأثناء مباراة ثانية تهشمت كل الأسنان الأمامية لأحد المنافسين ألا أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا – فكلما كثر الدم المسكوب كلما زادت حدة القتال ولم يقف بين المنافسين والموت سوى التابعين بعصاهما. أما فوق الصخور المحيطة بالساحة كانت صرخات المشاهدين المسعورة تقطع الصمت وبدأت الطبول في الدق، بينما قذفت فتيات صغيرات السن بأنفسهن وسط ساحة القتال ووقفن في مواجهة الفائز الذي وضع سبابته في فمه وأطلق صرخة الحرب الثاقبة مرة أخرى. وقام الشيخ عبد الرحمن من مكانه بجوارنا ودخل سريعا إلى الساحة ليعيد النظام، فصمت الجميع مرة أخرى عندما رفع يده وتم رفع رجلين من على الأرض، ثم آخرين وآخرين وهكذا حتى قارب النهار على الانتهاء.

وأخيرا عند المساء التفت شيخ نوري من قرية الكاو إلينا وسألني باسما "هل استمتعتم بالمباراة؟" وقد كان سؤاله بلطف لدرجة أنني ما كنت لأستغرب إذا أمر رجاله بقتل بعضهم البعض في سبيل ترفيهنا. فأجبته "نعم أن رجال كاو هم أفضل المقاتلين." فاستأذن مني في إنهاء المباراة وإرسال الرجال عائدين إلى قراهم – فقد انتهى عرض اليوم.

توجهت الفتيات مجموعة إلى منازلهن وهن يتغنون ويتراقصون بخفة فوق الأرض الرملية، ولملم الطبالون طبالهم تحت أبطهم ورحلوا نحو الجبال. أما المحاربون فغادروا ركضا، ترن الأجراس حول أجسامهم ويمسح من شقت جمجمته الجروح بالرمل لوقف النزف. كانوا يتجادلون ويضحكون مع زملائهم وهم يناقشون المباراة بالتفصيل وتصرفوا وكأنهم كانوا من المشاهدين وليس المشتركين الذين شبعوا ضربا. وقد زارنا أحدهم مساء في خيمتنا، لا يزال مثلث من الجلد المقطوع متدليا من قمة رأسه وهو يبتسم بخجل مقدما لنا ثلاث بيضات هدية.

أثر في هذا التصرف الرقيق الذي تلى مباشرة عرضا من الوحشية البدائية البحتة تماما كما أثرت في المباراة. لقد غادرنا جبال النوبة وأهلها الودودين الشجعان ونحن نحمل معنا ذكريات عن شعب قد يكون في أوج البدائية ولكنه يتسم بالحفاوة والكرم والأخلاق والرقة أكثر بكثير من العديد الذين يعيشون في ظلمات لا تمت إلى قارة أفريقيا بشيء.